موقف المسلمين من السكان المحليين في بلاد الشام ومصر أثناء الفتوحات الإسلامية في خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)

د . سعدي محمد علي

مدرس / قسم التاريخ

كلية الآداب / جامعة الموصل

ملخص البحث

مرت العلاقات بين الدولة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية بمراحل بدأت في عهد الرسول (ص) اذ ارسل الى الملوك والأمراء ومنهم الملك هرقل والمقوقس نائب هرقل في الإسكندرية يدعوهم فيها الى الإسلام وقد ارسلوا الهدايا الى الرسول محمد (ص) وأرسل رسولا الى امير الغساسنة في بصرى ، الذي أقدم على فعل شنيع أوقد نار الحرب بين المسلمين والبيزنطيين ، وهو قتل مبعوث رسول الله ، فجهز الرسول محمد (ص) جيشاً ليقتص من القتلة ، فوقعت معركة مؤتة ، وكانت هذه اول معركة تقع بين المسلمين والبيزنطيين ، ولما لم يستجب البيزنطيون لدعوة رسول الله (ص) قام بغزوهم سنة (٩ هـ / ٦٣٠ م) ، في غزوة تبوك لمقاتلة العرب الواقعين ضمن سيطرة الروم في جنوب بلاد الشام ، لكن لم يحصل قتال ، وقد عقد رسول الله (ص) صلحاً مع بعض القبائل الواقعة تحت سيطرة البيزنطيين ، وفي سنة (١١ هـ / ٦٣٢ م) جهز الرسول محمد (ص) جيشاً لتحرير بلاد الشام من البيزنطيين ، وأمر عليه اسامة بن زيد ولم يخرج الجيش لمرض الرسول (ص) ، وخرج حيش أسامة في خلافة ابي بكر الصديق (رضي) وأنجز مهمته . وبعد انتهاء الخليفة ابي بكر الصديق رض من حروب الردة اخذ يجهز الجيوش ويوجهها لتحرير الأراضي العربية الواقعة تحت سيطرة الروم البيزنطيين ، فأرسل جيشاً على جبهة العراق لتحريره من الفرس ، واتسم عهد ابي بكر الصديق رض بسياسة الجهاد ضد الروم البيزنطيين .

مقدمة البحث

اهتم بحثنا فهي الكيفية التي تعامل بها المسلمون مع أهالي بلاد الشام ومصر أثناء الفتوحات الاسلامية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رض ، اذ شهد هذا العهد فتوحات كبيرة اخرجت البيزنطيين من بلاد الشام ومصر ، فكان لها الاثر الكبير في اتساع الدولة الاسلامية وبسط هيبتها على المنطقة ، فضلا عن كثرة خيراتها . وقد ساعد المسلمين كثير من اهالي البلاد التي فتحوها وحرروها لأن دينهم يأمرهم بالعدل والصدق والأمانة والوفاء والتسامح مع أهالي البلاد المفتوحة ، وكانوا يأخذون القليل من الجزية اذا ما قورنوا بمن سبقهم من الملوك والأمراء البيزنطيين . وقد اعترف بعض الباحثين الغربيين بهذه الحقيقة في قولهم ان الجزية من البساطة بحيث لم تكن تثقل كاهل اهل الذمة ؛ لأنها اعفتهم من اللحاق بالجيوش الاسلامية الجهاد المفروض عليهم) (1) وبهذا الصدد يعترف ارنولد بالقول ((ولم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحيين لونا من الوان العقاب لامتناعهم عن قبول الاسلام بل انها بدل عن مقابل خدمتهم في الجيش مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين ولو كانت الجزية عقوبة لوجبت على جميع اهل الذمة ولم يستثنى منها احد لا شيخ ولا امرأة ولا معاق هذا فضلا عن انها تسقط عنهم في حال اشتراكهم في الدفاع عن دار الإسلام (2) . أما منهجنا في كتابة البحث فكان منهجاً وصفياً في سرد الوقائع بحسب تسلسلها التاريخي ، وبحسب قرب الأراضي المفتوحة من بعضها.

موضوع البحث

لقد غالى بعض المسلمين في تفسير معنى (الصغار) في آية الجزية فقالوا يجب اذلال الذمي حال دفعه الجزية بان يدفعها وهو قائم والمستلم جالساً وان يأتي ماشياً لا راكباً وان يسحب ويجر من يده لإعطائها ، فأحسن الرد عليهم ابن القيم بقوله ((وهذا كله لا دليل عليه ولا هو مقتضى الآية ولا نقل عن رسول الله (ص) ولا عن الصحابة (رضي الله عنهم) انهم فعلوا والصواب ان الصغار هو التزامهم لجريان احكام الملة عليهم واعطاء الجزية فان التزم ذلك فهو الصغار (3). ((وهكذا يتبين ان صفة التأمل الاسلامي مع اهالي البلاد المفتوحة لم تتركز في اوقات السلم فقط بل حتى في ايام الحرب ، اذ كان الرسول محمد (ص) اذا امر اميراً على احدى الغزوات او المعارك اوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال : اغزوا بسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تعثوا ولا تقتلوا وليداً اذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى ثلاثة خصال او خلال فأيتهن اجابوك فاقبل منهم وكف عنهم (ثم يذكر الاسلام والجزية والقتال . (4) وبذلك نلاحظ معاملة المسلمين الحسنة وخلقهم مع اعدائهم حتى وقت الحروب معهم فكان ذلك من العوامل المؤثرة في نفوس الآخرين على قبولهم الدين الاسلامي ، ويؤكد ارنولد هذا بالقول ((اذا نظرنا الى التسامح الذي امتد على هذا النحو الى رعايا المسلمين في صدر الحكم الاسلامي ظهر ان الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحول الناس الى الاسلام بعيدة عن التصديق . (5) وعندما مرض الخليفة أبو بكر الصديق رض مرضاً أقعده ، أمر عمر بن الخطاب رض أن يصلي بالمسلمين ، واستشار كبار الصحابة في ترشيح عمر بن الخطاب رض لتولي الخلافة بعده ، فلم يعارضه أحد ، وبعد ان توفاه الله سنة (١٣ هـ / ٦٣٤ م) بايع المسلمون عمر بن الخطاب رض ، وبعد توليه الخلافة بَينَ للمسلمين سياسته في قيادتهم ، ومنذ توليه الخلافة اتخذ الاجراءات الكفيلة لمواصلة الفتوحات وامداد وتعزيز الجيوش الاسلامية ومنها التي كانت مهمتها تحرير بلاد الشام من احتلال الروم البيزنطيين ، حيث ان تولي الخليفة عمر بن الخطاب رض



يُعد حدثاً مهما في طبيعة العلاقات بين الدولة الاسلامية والامبراطورية البيزنطية ، ولا سيما ان المعارك اخذت نسقاً اخر ، من كونها معارك جزئية الى معارك كبيرة ومصيرية ، وذلك لفتح المسلمين جزءاً من بلاد الشام وتقدمهم وسعيهم لفتح بلاد الشام من سيطرة البيزنطيين والقضاء على قوتهم ، فكانت معركة فحل وبيسان في الاردن ، ثم كانت معركة اليرموك وقد حققت نصراً كبيراً للمسلمين وهذه المعركة كانت من المعارك الفاصلة ؛ لأن الروم البيزنطيين قد جمعوا اكبر قوتهم لهذه المعركة وحققت حافزاً للمسلمين للقضاء على اكبر قوة بيزنطية في بلاد الشام ، وقد قورنت بمعركة القادسية في العراق .ولما انتهى المسلمون من معركة مرج الصفر وهم في طريقهم الى دمشق ، ذهبوا الى فحل (6) في ارض الاردن ، وكان خالد بن الوليد في مقدمتهم ، فلما نزل البيزنطيون في بيسان فتحوا عليها الانهار وهي ارض سبخة ، فأصبحت الارض وحلاً ومن جراء ذلك وجد المسلمون صعوبة في السير ، ولكن عزمهم واندفاعهم مكنهم من تجاوز هذه الصعوبات والتخلص منها ، وسميت بيسان ذات الردغة (5) ، ثم واجه المسلمون قوات الروم في معركة فحل ونصر الله المسلمين على الروم بعد ان قتلوا واسروا منهم وانهزم من تبقى منهم ودخل المسلمون فحل في ذي القعدة سنة(١٣ هـ / ٦٣٤ م . (7) (لقد سار الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) على نهج الرسول محمد (ص) في معاملة أهل الذمة ، فمن وصايا الخليفة ابو بكر الصديق رض)) يا ايها الناس قفوا اوصكم بعشرة فأحفظوها عني لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً الا لمأكلة وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا انفسهم من الصوامع فدعوهم وما فرغوا انفسهم له سوف تقدمون على قوم يأتوكم بانية فيها ألوان الطعام فاذا اكلتم شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً اندفعوا باسم الله . (8) ((ولما انتهى القائد شرحبيل بن حسنة من معركة فحل أخذ بالاستعداد لتحرير بيسان ، وكان معه عمرو بن العاص فنزلوا بها وفرضوا عليها الحصار ، واستمر الحصار اياما ، بعدها خرج الروم البيزنطيون من بيسان وحصلت معركة قتل فيها من الروم عدد كبير وانهزم قسم اخر ، فطلبوا الصلح فصالحهم القائد شرحبيل بن حسنة على مثل صلح دمشق ، وكان ذلك سنة (١٣ هـ / ٦٣٤ م . (9) (ولما وصل تحرير بيسان الى اهل طبرية طلب اهلها الصلح فصالحهم ابو الاعور بأمر من القائد شرحبيل ، وبعد حصار طويل تم تحريرها بعدها وصلت اخبار الى المسلمين بأن الامبراطور البيزنطي هرقل جمع جيشاً كبيراً ، وانضافت اليه فرق من ارمينية والجزيرة ومن الغساسنة ومستعربة الشام من جذام ولخم وعليهم جبلة بن الايهم الغساني وكان على قيادة الجيوش البيزنطية القائد ماهان ، اما الجيوش الاسلامية فكان تعدادها ستة واربعين الفاً ، واجتمعت جيوش المسلمين شمال نهر اليرموك ، ثم قدم خالد بن الوليد وقرر مع الامراء توحيد القيادة الاسلامية ، وطاف بها خالد بن الوليد وقال ((ان هذا يوم من ايام العرب لا يتبقى فيه الفخر ولا البغي واخلصوا جهادكم)) وعمل خالد على تنظيم الجيش على شكل كراديس عددها ستة وثلاثون كردوساً ، وفي هذا الوقت وصل كتاب فيه خبر وفاة الخليفة ابي بكر الصديق رض سنة (١٣ هـ / ٦٣٤ م) وتولى الخلافة عمر بن الخطاب الذي أمر بعزل خالد بن الوليد وتولية ابي عبيدة عامر بن الجراح قائداً للجيوش الاسلامية ، الا ان القائد خالد بن الوليد اخفى الكتاب عن المسلمين حتى لا تتزعزع معنويات الجيش الاسلامي في خوض هذه المعركة ويؤثر في نتائجها . (10) قام الروم البيزنطيون بهجوم قوي على المسلمين ، فصمد لهم المسلمون بكل شجاعة وقوة ، فبادر خالد بن الوليد مع اصحابه بالهجوم على القوات البيزنطية ، فانهزمت فلولهم وانهارت صفوفهم وتركوا قوات المشاة تحت ضربات سيوف المسلمين ، فقاتلوهم أشد قتال واقتحموا صفوفهم ، فانهزم البيزنطيون الى الواقصة وقتل منهم اعداد كبيرة ، حيث قدر عدد القتلى حوالي مائة وعشرون ألفاً ، وانتهت معركة اليرموك بالنصر الكبير للمسلمين وقتل قائدهم ماهان وقد استشهد عدد من المسلمين في هذه المعركة . (11) ولما وصلت اخبار انتصار المسلمين الى الامبراطور البيزنطي هرقل وهو مقيم بأنطاكية هرب الى القسطنطينية ، فلما انتهى الى حدود بلاد الشام نظر الى سوريا وقال ((عليك يا سوريا السلام ونعم البلد لهذا العدو . لقد كان انتصار المسلمين على الروم البيزنطيين في هذه المعركة يعني القضاء على قوة البيزنطيين داخل الاراضي العربية التي تم تحريرها فيما بعد ، وبعد انتهاء معركة اليرموك تولى قيادة الجيوش الاسلامية الامير ابو عبيدة عامر بن الجراح حسب كتاب الخليفة عمر بن الخطاب رض ، وسار ابو عبيدة الى دمشق وفي هذه الاثناء وصلت امدادات الى القوات البيزنطية في دمشق من حمص ، ولما علم ابو عبيدة امر الجيوش بالتوجه الى دمشق سنة (١٤ هـ / ٦٣٥ م) ففرض عليها الحصار ، فكلم الاسقف خالد بن الوليد قائلاً ((يا ابا سليمان ان امركم مقبل ولي عليك عدة فصالحني عن هذه المدينة)) فصالحهم على دفع الجزية بعد حصار دام ستة اشهر فدخل المسلمون دمشق وفي رواية اخرى ذكر فيها البلاذري عن فتح دمشق فيقول :

((فلما رأى الأسقف أبا عبيدة قد قارب دخول المدينة (ويعني دمشق) بادر الى خالد بن الوليد فصالحه ففتح له الباب الشرقي من المدينة فدخل الأسقف معه ناشر كتابه الذي كتبه له فقال بعض المسلمين والله ما خالد بأمير فكتابه لا يجوز صلحه فقال ابو عبيدة انه يجيز على

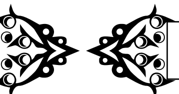


المسلمين ادناهم واجاز صلحه وامضاه ولم يلتفت الى ما فتح عنوة فصارت دمشق صلحاً ، كلها فكتب ابو عبيدة الى الخليفة عمر بن الخطاب وانفذه وفتحت ابواب المدينة والتقاء القوم)) ، ثم تقدمت الجيوش الاسلامية بعد تحرير دمشق بقيادة الامير ابي عبيدة حتى وصلت الى حمص. (12) وكان الروم البيزنطيون في حمص يجمعون لحرب المسلمين وقد زودهم الامبراطور البيزنطي بالمدد وامرهم بقتال المسلمين ، ولما وصل ابو عبيدة حمص ووجد الروم البيزنطيين بهذا العدد الكبير حث المسلمين على الجهاد والصبر والثبات وقتال اعدائهم ، ودارت بينهم معركة صبر لها المسلمون فانهزم البيزنطيون وطلبوا الامان فصالحهم ابو عبيدة على ان يؤدوا الجزية (13) وفي رواية اخرى عن فتح حمص يقول البلاذري : ((بلغ انه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين ثباتهم اليهم لواقعة اليرموك ردوا على اهل حمص ما كانوا اخذوا منهم من الخراج وقالوا قد شغلنا عن نصرتكم وللدفع عنكم فانتم على امركم فقال اهل حمص لولايتكم وعد لكم احب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشمة ولندفعن حيذ هرقل عن المدينة مع عملكم اليهود فقالوا والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص الا اذ نغلب ونجهد فاغلقوا الابواب وحرسوها ولذلك فعل اهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود وقالوا اذ ظهر الروم واتباعهم على المسلمين صرنا الى ما كنا عليه ولا فان على امرنا ما تبقى للمسلمين عدو فلما هزم الله الكفرة (الروم) واظهر المسلمين فنجوا وخرجوا وادوا الخراج . ((يتضح من هذا النص ان المسلمين ردوا الجزية التي اخذت من اهل حمص لما علموا بجمع الروم اليهم وهذا يدل على العدالة التي يحملها المسلمين تجاه اهل الذمة لان الجزية تؤخذ منهم مقابل حمايتهم ولما علم المسلمين انهم غير قادرين على حمايتهم عندما جمع الروم في حرب اليرموك قاموا بإرجاع الجزية الى اهلها لان بخلاف البنود التي يضعها المسلمون مع اهل الذمة 14) . وبعد ان انتهى من حمص توجه ابو عبيدة الى بعلبك فخرج اليه اهلها يطلبون الصلح ، فصالحهم ابو عبيدة على دفع الجزية ، وبذلك تم تحرير حمص من البيزنطيين وواصل ابو عبيدة مسيره حتى وصل الى اللاذقية واشتبك معهم في معركة ، الا انهم في النهاية طلبوا الصلح والامان على دفع الجزية ، ثم سار ابو عبيدة الى قنسرين وفي اثناء مسيره نزل في منطقة الحاضر فتقدم اليه القائد ميناس ومعه الجيوش البيزنطية والتقى الطرفان في معركة تمكنت فيها القوات الاسلامية من الانتصار على القوات البيزنطية وقتل قائدهم واعداد كبيرة من قواته . اما اهل الحاضر فطلبوا الامان من ابي عبيدة فصالحهم على دفع الجزية ثم واصلت القوات الاسلامية مسيرها حتى وصلت الى قنسرين فنزلت بها وكان البيزنطيون قد تحصنوا داخلها وقد رأى الروم البيزنطيون وهم في قنسرين انهم ليس في استطاعتهم ملاقاة المسلمين طلبوا الصلح والامان فصالحهم الامير ابو عبيدة على دفع الجزية ، ودخل المسلمون مدينة قنسرين وذلك سنة (١٦ هـ / ٦٣٧ م) (15) ، وبعد تحرير قنسرين واصل ابو عبيدة مسيره حتى وصل حلب ، وكانت حلب مدينة محصنة ففرض المسلمون الحصار عليها ، وبعد ذلك طلبوا الصلح فصالحهم ابو عبيدة على دفع الجزية ، ثم واصل ابو عبيدة عملية تحرير مدن الشام حتى وصل الى انطاكية وطلب اهلها الامان والصلح على دفع الجزية (16) من تعامل المسلمين مع اهالي بلاد الشام في رواية الواقدي ذكر فيها وكان الاعلاج أي الروم البيزنطيين اربعة اشخاص فقال لهم الامير ابو عبيدة ان مننا عليكم واطلقناكم من اسركم ورددنا عليكم اموالكم واهاليكم فهل تكونوا في طاعتنا وتؤدون الجزية الينا والخراج فقالوا اوفوا الينا بذلك ونحن نفعل جميع ما شرطته علينا فعند ذلك اقبل ابو عبيدة الى المسلمين وقالوا رأيت من الرأي او اوتي هؤلاء من القتال وارد عليهم اموالهم وعيالهم وتكونوا عبيداً لنا وتعمروا الارض والبلاد وتأخذ خراجهم وجزيتهم ممن انتم قائلون من كنت بالذي اقطع امراً الا بمشورتكم فقالوا الراي في ذلك ايها الامير ان رأيت خلاصاً للمسلمين . ففرض على كل واحد اربعة دنانير وبذلك بعث الى عمر بن الخطاب رض لهذا فعند ذلك رد عليهم اموالهم واولادهم واراضيهم على بلادهم وكتب اسمائهم وامرهم بالرجوع الى اوطانهم على الاستقرار في طباعهم واخبروا من كان بالعرب منهم محسن سيره العرب المسلمين مما عاملوهم به من الجميل وقالوا لقد ظننا انهم يقتلوننا ويستعبدوا اولادنا واموالنا ولا من قد يرحمونا في بلادنا على اداء الجزية والخراج ( ) ثم توجه الامير ابو عبيدة الى بيت المقدس وكانت قسم من القوات الاسلامية قد سبقته وحاصرت بيت المقدس الى ان وصل ابو عبيدة واستمر الحصار فترة طويلة وكانت ايام شتاء ، بعدها طلب اهل بيت المقدس ان يحضر أمير المسلمين ليفتحوا المدينة كتاباً ((بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب كتبه عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس انكم امنون على دمائكم واموالكم وكنائسكم لا تسكن ولا تخرب الا ان تحدثوا حدثاً عاماً)) وتم ذلك سنة (١٦ هـ / ٦٣٧ م) وفي أثناء مرور الخليفة عمر بن الخطاب رض ببلاد الشام لفتح بيت المقدس مر بقوم وضعوا في العراء تحت اشعة الشمس فقال : ما شأن هؤلاء فقيل عقوبة لهم لعدم دفعهم الجزية فكره ذلك وقال : هم وما يعتذرون به فدعوهم ولا تكلفونهم ما لا يطيقونه ثم امر بهم فخلى سبيلهم (17) ، بعدها امر الخليفة عمر رض معاوية بن ابي سفيان ان يسير الى تحرير قيسارية بعد وفاة اخيه يزيد ، وقد حاصرها مدة طويلة ، ثم حررها حرباً (18) سنة (١٩ هـ / ٦٤٠ م) بعد تحرير الشام وفلسطين أصبح تحرير مصر بالغ الاهمية لارتباطها بالشام بعلاقات سياسية وتجارية) ولما قدم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رض الى مدينة الجابية في بلاد الشام سنة (



١٨ هـ / ٦٣٩ م) قدم اليه عمرو بن العاص وطلب الموافقة على التوجه الى مصر لتحريرها من الروم البيزنطيين وقال ((انك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم وهي اكثر الارض اموالاً واعجزها من القتال والحرب)) الا ان امير المؤمنين رفض ذلك في بداية الأمر خوفا على المسلمين ولكنه وافق اخيرا على ان يسير عمرو الى مصر لتحريرها ومعه اربعة الاف مقاتل (19) ، وسار عمرو بن العاص بجيشه الى مصر سنة (١٩ هـ / ٦٤٠ م) وعند دخوله قرية بحدود مصر بين رفح والعريش بعث أمير المؤمنين عمر رض كتابا اليه يأمره فيه بالعودة ، وقد نص الكتاب ((سر واستخر الله في مسيرك وسيأتيك كتابي سريعا ان شاء الله فان ادركك كتابي امرك فيه بالانصراف عن مصر قبل ان تدخلها او شيئا من ارضها فانصرف وان انت دخلتها قبل ان يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره)) فقرأ الكتاب وبلغ اصحابه بانه وصل وهم بقرية داخل حدود مصر ، فعليه يجب الاستمرار بالمسير ومواصلة تحرير مصر ، ثم تقدم عمرو بن العاص من العريش الى الفرماء فوجد قوما من الروم البيزنطيين وقد تهيأوا للقتال مع القوات الاسلامية وهذه اول معركة بين المسلمين والبيزنطيين في مصر واشتد القتال بين الطرفين وقتل كثير من البيزنطيين ثم دخلوا الفرماء وتحصنوا بها وفرض عليهم الحصار شهرين حتى تحررت من البيزنطيين ، ثم وجه عمرو بن العاص عبدالله بن حذافة السلمي الى عين شمس فدخلها وصالح اهلها ، ووجه خارجة بن حذافة العدوي الى الفيوم والاشمونين واخميم وقرى الصعيد فحرر تلك المدن صلحا على ان يدفعوا الجزية ، ووجه عمير بن وهب الجمحي الى تنيس ودمياط وكوته ودميرة وشطا وبناء وقهلة وبوصير فحررها صلحا ، ووجه عقبة بن عامر الجهني الى سائر قرى اسفل مصر فحررها صلحا (20) .

وكان بالإسكندرية اسقف للقبط يدعى ابا بنيامين ، لما علم بقدوم عمرو بن العاص الى مصر قال للقبط : لن تقوم دولة للبيزنطيين في مصر وان ملكهم قد زال ، وامر اهل مصر باستقبال القوات الاسلامية وخاصة ان اهل الفرماء اصبحوا عونا للمسلمين ، واستمر عمرو بن العاص في سيره فلم يلق من قبل البيزنطيين أية مقاومة تذكر حتى نزل القواصر فدخلها ثم سار الى حصن بلبيس حيث التقى المسلمون مع الروم البيزنطيين في معركة قتل فيها الكثير من البيزنطيين وتمكن المسلمون من تحريرها سنة (٢٠ هـ / ٦٤١ م) من الاحتلال البيزنطي. ثم تقدم الى ان وصل رنين والتقى الطرفان في معركة انتصر فيها المسلمون وتمكنوا من تحريرها ، ثم عسكروا فيها ثم واصلوا المسير الى حصن بابيلون ، وكان هذا الحصن ذا اسوار عالية ومنيعة من الصعب اقتحامها ، فارسل عمرو بن العاص كتابا الى امير المؤمنين عمر رض يطلب منه المدد فارسل اليه جيشا من اثنا عشر الفا بقيادة الزبير بن العوام وبعد وصول هذه القوة وزعها الزبير حول الخندق ، ولما طالت مدة الحصار وضعوا سلما على السور ثم صعدوا عليه وفتحوا باب الحصن ، ودخل المسلمون وحرروه بعد حصار شديد دام سبعة اشهر، ثم طلب حاكم الحصن الصلح فصالحه عمرو بن العاص على المعاهدة التي عرفت بمعاهدة حصن بابيلون سنة (٢٠ هـ / ٦٤١ م) وبعد ان اكمل عمرو بن العاص تحرير مصر كتب الى الخليفة عمر بن الخطاب رض كتابا يستأذنه بالمسير الى الإسكندرية لتحريرها بعد ان استخلف مكانه خارجة بن حذافة بن غانم (21) ، فأذن له الخليفة عمر بن الخطاب رض . وسار عمرو بن العاص الى الاسكندرية ، ولما وصلت الاخبار الى البيزنطيين اخذوا يعدون الجيش والسلاح لملاقاة المسلمين ، وفي طريق عمرو الى الاسكندرية مر بترنوط واشتبك فيها مع قوة من البيزنطيين ، تمكن المسلمون من هزمهم ولقي جماعة اخرى من البيزنطيين في كوم شريك ووقعت بينهم معركة دامت اياماً عدة ، واستطاع المسلمون ان يهزموهم ولقي جماعة اخرى في حصن الكريون ، وكان هذا اهم معقل بيزنطي يقع امام الاسكندرية وهو مشرف عليها ، وهناك وقعت بينهم معركة استمرت اياما عدة ، انتهت بانتصار المسلمين وقتل عدد كبير من الروم البيزنطيين وانهزم الباقون ، وسار عمرو بن العاص الى الاسكندرية وقد تجمعت فيها اعداد كبيرة من الروم البيزنطيين ، وكانت ذات اسوار عالية وقوية وأصبح الروم البيزنطيون على استعداد لقتال المسلمين ، وفرض عليها الحصار ثلاثة اشهر فطلب المقوقس صاحب مصر من عمرو بن العاص الصلح والأمان ، فصالحه على شرط ان يخرج من الاسكندرية من اراد الخروج ، وكان هذا سنة (٢١ هـ / ٦٤١ – ٦٤٢ م) ومن الظواهر التي تدعو الى الدهشة والعجب سهولة فتح هذه المدن من قبل القوات الإسلامية ، وربما يرجع هذا الى عامل الجهاد وبذل النفس والمال في سبيل نشر هذا الدين وتحرير الاراضي العربية الواقعة تحت سيطرة الروم البيزنطيين ، والحماس الديني الذي زرعه الاسلام في قلوب المحاربين وهو السبب الرئيس ، وضعف الامبراطورية البيزنطية في كفاحها الطويل على مدى قرن من الزمان مع الفرس الذي انتهى قبل مباشرة المسلمين بالفتوحات , ويرجع ايضا الى اعتماد البيزنطيين على العنصر البحري في مواجهة فتح بري واسع النطاق ورفض كثير من اهالي المناطق المفتوحة بالتعاون مع القوات البيزنطية بسبب سخطهم الشديد لاضطهاد هرقل لعقيدتهم المنوفيستية ومن نظامه المالي المجحف (22). الامر الذي دفعهم ان يستشرفوا ويرحبوا بالجيوش الاسلامية ، فقد تقرر مصير سورية (بلاد الشام) في معركة اليرموك ، كما تقرر مصير مصر في معركة حصن بابيلون ، وحقيقة ان بعض المدن قاومت مقاومة اكثر من شكلية ما عدا الساحلية منها لكن معظمها لم تستطع الصمود طويلاً ، هذا بالإضافة

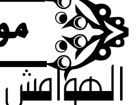




الى الشروط السخية التي منحها المسلمون لمن طلب الصلح والامان من اهل المدن التي فتحوها ، وكان في نظر كثير من سكان هذه المدن اقرب ما يكون الى حركة تحرير ، فضلا عن التسامح الاسلامي تجاه أهل الذمة ومن خلال المعاهدات التي ابرمت معهم ، وما حادثة القبطي المشهورة مع عبدالله بن عمرو بن العاص التي وقعت في زمن الخليفة عمر بن الخطاب رض الا دليل على مدى التسامح والعدالة مع أهل الذمة ورفض الخليفة وقوع الظلم عليهم أياً كان مصدره ، كما كتب امير المؤمنين عمر بن الخطاب رض الى الامير ابي عبيدة يأمره بإرسال القائد عياض بن عنم لتحرير الجزيرة الفراتية سنة (١٨ هـ / ٦٣٩ م) فخرج ومعه خمسة الاف مقاتل وتمكن هذا الجيش من الوصول الى الرقة وكان فيها جمع كثير من الروم البيزنطيين فحاصر القائد عياض الرقة ، فارسل اليه بطريق المدينة يطلب الصلح والامان فصالحه القائد عياض ، ثم تقدم بعد ذلك الى الرها واخذ اهل الرها في اعداد العدة والسلاح لقتال المسلمين وعندما وصل الجيش الاسلامي وقعت بينهم معركة استمرت خمسة عشر يوماً وتيقن الروم البيزنطيون ان لا قبل لهم في استمرار القتال مع المسلمين فطلب بطريقهم الصلح فصالحهم القائد عياض على مثل صلح الرقة ثم واصل القائد عياض سيره حتى وصل حران ، فصالحهم على مثل صلح الرقة وتم تحرير هذه المناطق سنة (١٩ هـ / ٦٤٠ م (23) . وكانت الموصل خاضعة للسيطرة البيزنطية وكان الانطاق قائداً عليها ، وقد استشعر هذا القائد بالخطر عندما توجه الجيش الاسلامي لتحرير العراق من السيطرة الفارسية فتوجه بقواته صوب تكريت ومعه بعض القبائل العربية التي تقاتل تحت سلطة البيزنطيين ومنها قبائل اياد والنمر وتغلب والشهارجة فعسكروا في مدينة تكريت فأمر امير المؤمنين عمر رض عبدالله بن المعتم بالمسير الى تكريت وتحريرها وبعدها يسير الى الموصل وبعد وصوله تكريت حاصرها أكثر من اربعين يوماً بعدها طلب عبدالله من القبائل العربية ان يكونوا الى جانبه ، فأجابوه وأصبحوا الى جانبه وتمكن من تحرير تكريت ودخول المدينة بعدها سار الى الموصل وسير امامه ربعي بن الأفكل وامره بالإسراع في المسير قبل وصول اخبار انتصار المسلمين الى الموصل فيتخذوا الاجراءات لمنع دخول المسلمين اليها وقد سارت مع ربعي القبائل العربية فلما وصلوا الى الموصل اخذوا يدخلونها مجاميع صغيرة ويدعون النصر والضفر على المسلمين ليأمن اهل الموصل وفتحت الابواب وكان هذا الفتح الاول لمدينة الموصل انما الفتح الثاني فكان على يد القائد عياض بن غنم وذلك سنة (١٨ هـ / ٦٣٩ م) حيث تحررت الارض كلها واصبحت تابعة للدولة الاسلامية (24) وبالعودة الى مصر ، فبعد ان تم تحرير الاسكندرية توجه المسلمون الى بلاد المغرب لتحريرها من سلطة الروم البيزنطيين بقيادة عمرو بن العاص ، فتوجه نحو برقة من اجل تأمين حدود مصر من جهة الغرب وتكون قاعدة لإكمال عملية تحرير بلاد المغرب العربي من الروم البيزنطيين وكانت تسكن برقة قبيلة لواتة وكان مع عمرو اربعة الاف مقاتل ودخل برقة من دون قتال وطلب اهلها الصلح والامان فصالحهم القائد عمرو على ان يؤدوا الجزية ، وكان ذلك سنة (٢١ هـ / ٦٤٢ م) بعدها تقدم عمرو الى طرابلس سنة (٣٢ هـ / ٦٤٣ م) وفرض عليها الحصار شهراً وكانت المدينة من جهة الشمال غير مسورة فدخلت مجموعة من المسلمين من هذا الجانب وكبروا فظن البيزنطيون ان المسلمين دخلوا المدينة فهربوا بسفنهم الراسية ثم دخل عمرو وجيشه المدينة ثم كتب عمرو بن العاص كتاباً الى امير المؤمنين عمر رض قال فيه ((ان الله فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين افريقية الا تسعة ايام فان رأى امير المؤمنين ان يأذن لنا في تحريرها)) فأجابه امير المؤمنين عمر رض)) ما هي افريقية واكنها مفرقة غادرة مغدورة بها)) ثم ارسل عمرو بعض الحملات الى المناطق الساحلية لتحريرها واقام هو بطرابلس للإشراق على عمليات التحرير واستمرت هذه العمليات حتى سنة (٢٣ هـ / ٦٤٤ م) وجميعها حررت حرباً ما عدا برقة وزويله (25) .واستشهد امير المؤمنين عمر بن الخطاب رض بيد غادرة على يد ابي لؤلؤة المجوسي لعنه الله سنة (٢٢ هـ / ٦٤٣ م) وتولى الخلافة بعده عثمان بن عفان رض وواصل سياسة الفتوحات والتحرير.

الخاتمة

يتبين من خلال الفتوحات الإسلامية انه لم يكن للمسلمين دوافع عسكرية عدائية ولا أطماع اقتصادية ولا حب التوسع والتسلط على حساب الدول الاخرى بل ان غايتهم هي نشر الدين الإسلامي الذي جاء به الرسول محمد (ص) للإنسانية جمعاء (وَمَا أَرسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) ، كذلك لإعادة الحقوق الى أصحابها وتحرير الأراضي العربية من سيطرة الدولة البيزنطية ، فضلاً عن تأمين حدود الدولة الإسلامية بفتح مدن الشام ومصر ، وتخليص أهلها من جور البيزنطيين وتسلطهم . كما تناول البحث موضوع الجزية التي فرضها المسلمين على أهل الذمة الذين رفضوا اعتناق الدين الاسلامي ولم تكن بالأموال الطائلة والمجحفة بحقهم ، انما كانت اموال قليلة اذا ما قورنت بالأموال التي كان يفرضها الأباطرة البيزنطيين على السكان المحليين في بلاد الشام ومصر ، فقد اعفي في زمن الفاتحين كل من النساء والأطفال والشيوخ أي انها لم تفرض عليهم جميعاً وانما على القادرين على حمل السلاح منهم وبالمقابل حمايتهم من أي خطر يواجههم واعفائهم من الخدمة العسكرية وممارسة حياتهم اليومية من تجارة وزراعة وغيرها من الأعمال.





الهوامش

(1) توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام ، ترجمة وتعليق حسن ابراهيم حسن وآخرون ، مكتبة النهضة العربية ، ، ص٩٧

(2) .ارنولد : الدعوة الى الاسلام ، ٧٩ .

(3) ابن قيم الجوزية ، ابو عبدالله محمد بن ابي بكر : احكام أهل الذمة ، تحقيق صبحي الصالح ، جامعة دمشق ، ، ج ١ / ٤٢ .

(4)النيسابوري ، مسلم بن الحجاج : صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار التراث العربي ، (بيروت ، د – ت) ، ٣ / ١٣٥٧

(5) ارنولد : الدعوة الى الاسلام ، ٧٩

(6) . فحل : موضع في بلاد الشام ، الحموي ، شهاب الدين ابي عبدالله البغدادي : معجم البلدان ، دار الكتب العلمية ،، ج ٣ / ٨٥٣

(7) . الردغة : الطين شديد الوحل ، الفيروز ابادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب : القاموس المحيط ، المطبعة المصرية ، ، ج ٣ / ١٠٦

(8) .الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٢ / ٢٤٩

(9) . الواقدي : فتوح الشام ، ج ١ / ١٦٠ ؛ ابن خياط : تاريخ خليفة ، ج ١ / ١٠٠ ؛ اليعقوبي ، احمد بن يعقوب بن جعفر : تاريخ اليعقوبي ، دار بيروت ، (بيروت ، ١٩٨٠ م) ، ج ٢ / ١٤١ (14) . يذكر الواقدي ان عدد المسلمين يوم اليرموك كانج ١ / ٢١١

(10) . الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ / ٣٩٥ ؛ ابن الأثير : الكامل في

(11) . خياط : تاريخ خليفة ، ج ١ / ١٠٠ ؛

(12) .ابن عساكر ، ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي : تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، (دمشق ، ١٩٥١ م) ، ج ٩ / ٥٣٤

(13) . الازدي : فتوح الشام ، ٢٣٦ ؛ ابن العبري ، أبو الفرج غريغوريوس الملطي : تاريخ مختصر الدول ، المطبعة الكاثوليكية ، (بيروت ، ١٩٨٥ م) ، ١٠٢

(14) . الازدي : فتوح الشام ، ٩٧ ؛

(15) .البلاذري : فتوح البلدان ، ١٥٥ .

(16) .الواقدي : فتوح الشام ، ج ١ / ١١٣ ؛ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ / ٦٠١ ؛ ابن العديم ، كمال الدين ابي القاسم عمر بن احمد بن هبة الله : زبدة حلب في تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان ، المطبعة الكاثوليكية ، (بيروت ، ١٩٥١ م) ، ج ١ / ٢٥.

(17) . الحاضِر : الحي العظيم مكان قرب حلب ، الحموي : معجم البلدان ، ج ٢ / ٢٠٦.

(18) . البلاذري : فتوح البلدان ، ١٦٤ ؛ ابن العديم : زبدة حلب ، ج ١ / ٢٥ – ٢٦ (19) . الواقدي : فتوح الشام ، ج ١ / ١١٣ ؛ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ /.

(19) . ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم : كتاب الخراج ، دار المعرفة ، (بيروت ، ١٩٧٩ م) .

(20) .الخربوطلي ، علي حسين : مصر العربية الاسلامية ، مطبعة لجنة لبنان ، (مصر ، ١٩٦٣ م) ، ٧

(21) . اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ / ١٤٧ – ١٤٨ ؛ ابن عبد الحكم ، ابو القاسم عبد الرحمن بن عبدالله : فتوح مصر واخبارها ، مطبعة ليدن ، (بريل ، ١٩٢٠ م) .

(22) . ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ، ٥٦ ؛ الكندي ، محمد بن يوسف : الولاة وكتاب القضاة ، تحقيق رفن كست ، مطبعة الاباء اليسوعيين ، (بيروت ، ١٩٠٨ م) .

(23) . البلاذري : فتوح البلدان ، ٢٤٩ ؛ الكندي : الولاة والقضاة ، ٧ ( ) . ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ، ٥٦.

(24) . اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ / ١٤٨ ؛ المقريزي ، تقي الدين بن العباس احمد بن علي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط ، دار الاثار ، (بغداد ، ١٩٧٠ م) ، ج ٢ / ١٦٣.والاستقرار العربي في افريقيا والاندلس ، دار الرشيد (بغداد ، ١٩٨٢ م) ، ١١٢.

(25) طه ,عبدالواحد ذنون الفتح ,والاستقرار العربي في افريقيا والاندلس, دار الرشيد ,(بغداد ,١٩٨٢م .